الوقفات النقديّة في الرحلة المغربيّة

أحمد محمد الجرم[1]

كلية الآداب – جامعة مصراتة

تاريخ التقديم: 04-3-2020 ، تاريخ القبول: 25-03- 2020، نشر إلكترونيا في 26-03-2020

https://doi.org/10.36602/faj/2020.n15.06

ملخص البحث:

الرحلة الأدبية تعتمد على أسلوب كاتبها، الذي يبطّنها بآرائه وأفكاره وثقافته، وخلاصة تجاربه، وبما تحويه من نماذج ورؤى وصور نقدية قلّما توجد في غيرها من المصادر، وهذا هو الدافع الأول لدراستها، والتعرف على وقفات والصور النقدية عند كاتبها، ومدى اهتمامه بها، والمستوى الذي بلغته آراؤه النقدية في إطار النقد العام. فتناولت هذه الدراسة التعريف بالرحلة وصاحبها، ثم طبيعة النقد في عصره، وأخيرا خصائص الرؤية النقدية في الرحلة المغربية، مستعينا في ذلك بالمنهج التاريخي، والاستعانة بإجراءات نظرية القراءة. وأظهرت الدراسة نتائج متعددة ومتنوعة بين الإعجاب بالأديب قبل الإعجاب بالعمل الأدبي نفسه، وبين الآراء التي تحمل في طياتها الكثير من الانطباعية، والتعميم في الحُكْم، وبين تحليلٍ علمي موضوعي للعمل الأدبي مبينا جمالياته وواقفا على أسراره، وأحيانا يشرك القارئ في استخلاص النتائج، ويعمد في أحايين أخرى إلى تبرير الأخطاء التي يقع فيها الأديب، كما أنها تهتم بالجانب التوثيقي للكثير من الأعمال الأدبية التي لم تذكرها المصادر والمراجع الأخرى.

الكلمات المفتاحية: *الرحلة / المغربية / الرؤى / العبدري/ وعظية/ المشاهدات.*

[1] a.ajarem@art.misuratau.edu.ly

ISSN 2664-1682

Critical Vision of the Moroccan Journey

Ahmed Mohamed El-Jarem
Faculty of Arts - Misurata University

Abestract

The literary journey depends on the style of its author, which lines her with his views, ideas, culture, and the summary of his experiences, and what they contain of models, visions, and critical images rarely found in other sources, and this is the first motivation for her study, and to identify the stops and critical pictures of her writer, the extent of his interest in it, and the level at which His views were criticized in the context of public criticism. This study dealt with the definition of the trip and its owner, then the nature of criticism in its era, and finally the characteristics of the critical vision in the Moroccan trip, using the historical approach, and using the procedures of reading theory. The results of the study were multiple and varied between admiring the writer before admiring the literary work itself, and the opinions that carry a lot of impressionism and generalization in governance, and between objective scientific analysis of literary work indicating its aesthetics and standing on its secrets, and sometimes the reader is involved in drawing conclusions, and deliberately at times Another is to justify the errors in which the writer falls, as it is concerned with the documentary aspect of many literary works that are not mentioned in other sources and references.

Keywords: *the Journey, the Moroccan, Visions, Abdri, Sermon, views.*

1. المقدمة

الرحلة من الفنون المرتبطة بالتراث الأدبي بجميع أنواعه، من قصة ورواية ومقامة وشعر ومسرح ... إلخ، وإذا كانت هذه الفنون تتناول في مضمونها نمطا من أنماط الحياة، فإن الرحلات تشمل جميع مناحي الحياة، بل تعد من أكثر هذه الفنون متعة بما تحويه من

ISSN 2664-1682

مادة غزيرة تشبع فضل كل من المؤرخ والجغرافي وعالم الاجتماع والاقتصاد، ومؤرخو الآداب والأساطير والأديان، فهي تمثل في مجموعها سجلا حقيقيا لمظاهر الحياة المختلفة.

ومع غنى الرحلة بموضوعاتها المتنوعة من علم وأدب وخرافة وأسطورة وعادات وتقاليد، فهي كذلك فن من فنون القول تعتمد على أسلوب كاتبها، حيث يبطّنها بآرائه وأفكاره، وثقافته وخلاصة تجاربه، إلا أنها قد تفتقر لمعايير الفنون الأدبية الأخرى وضوابطها.

ولكنها في الوقت نفسه تقوم الرحلة بتقديم لوحات مختلفة من الحياة الإنسانية، تتشعب فيها الأحداث، وتتعدد الشخصيات والأماكن؛ لأن الرحّالة أثناء رحلته وتنقله من مكان إلى آخر يسجل ملاحظاته عن كل ما يعنّ له في رحلته هذه، ويروي ما سمعه من أخبار وحكايات، ويوثق عادات الشعوب وتقاليدهم، ومن ثم يتولى إيراد انتقاداته وفق رؤيته، ومرجعيته العلمية أو الأدبية أو الدينية، ومع هذا تبقى الرحلة مصدرا مهمّا للباحثين كلٌّ حسب اختصاصه.

ولأهمية الرّحلات من جهة، فقد أثار اهتمامي وجود نماذج عديدة ومتنوعة من الرؤى والصور النقدية في الرحلة المغربية للعبدري من جهة ثانية، الأمر الذي حفّزني إلى دراسة هذه الرّحلة وسبر غورها، والتعرف على ما تحتويه من معلومات ومعارف وفنون.

1. 1 أهداف البحث:

يهدف البحث الحالي إلى الإجابة على الأسئلة االتالية:

1. هل اهتم الرّحالة العبدري بالجوانب النقدية؟ وإلى أي مستوى بلغ اهتمامه بها؟
2. هل الموضوعات التي تعرّضت للنّقد في هذه الرّحلة شعرية أم نثرية؟

ISSN 2664-1682

3. هل هذه النّصوص التي تناولتها الرّحلة مذكورة في مظانّها أو الرحلة هي المصدر الوحيد الذي احتفظ بها؟

وعلى هذا الأساس قسّم هذا البحث إلى ثلاثة فصول:

الأول: مفهوم الرحلة عموما، والتعريف بصاحب الرحلة وعصره.

الثاني: طبيعة النقد في القرنين السابع والثامن الهجريين

الثالث: خصائص الرؤية النقدية في الرحلة وتحليلها في ضوء النقد الحديث.

2. منهج البحث:

للإجابة عن تساؤلات البحث، يتطلب الأمر استخدام مناهج عدة، كالمنهج الاستقرائي، والمنهج التحليلي، والمنهج التّاريخي، إلا أن الصّعوبة تكمن في قلة المراجع التي تناولت أدب الرحلة عموما، وبالأخص رحلة العبدري على وجه التحديد.

3. مفهوم الرحلة، والتعريف بصاحبها وعصره

ولد الإنسان راحلا، والرحلة راسخة في طبيعة الإنسان، فمن العدم إلى الوجود كانت رحلة آدم عليه السلام الأولى، ومن الجنّة إلى سطح الأرض كانت رحلته الثانية، ورحلة نوح عليه السلام في السفينة، ورحلة يونس عليه السلام في بطن الحوت، ورحلة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع زوجته سارة إلى مصر، ثم إلى مكة المكرمة مع طفلهما إسماعيل عليه السلام، ورحل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من مكّة إلى المدينة المنورة؛ وهذه الرحلات وردت في الكتب المقدسة. ولكن علينا أن ننطلق بتعريف يوضح مفهوم الرحلة لغة واصطلاحا.

ISSN 2664-1682

1.3.مفهوم الرحلة:

يقول ابن منظور في لسان العرب عن الرّحلة: "الرّحلة في اللغة الترحيل والارتحال، بمعنى الإشخاص والإزعاج، يقال: رحل الرجل إذا سار"(ابن منظور، د.ت، 276/11).

فالرحلة هنا بمعنى السير وتأتي بمعنى الصبر على الأذى، وبمعنى الوجهة التي يقصدها الإنسان، يقول الجوهري: "رَحَلْتُ له نفسي، إذا صبَرتَ على أذاه. ورَحَلَ فلان وارْتَحَلَ وتَرَحَّلَ بمعنىً، والاسمُ الرَحيلُ. واسْتَرْحَلَهُ، أي سأله أن يَرْحَلَ له. أبو عمرو: الرُحْلَةُ بالضم: الوجهُ الذي تريده. يقال: أنتم رُحْلَتي، أي الذين أَرْتَحِلُ إليهم. والرِحْلَةُ بالكسر: الارْتِحالُ، يقال: دَنَتْ رِحْلَتُنا"(الجوهري، 1987، 247/1).

"الرَّحَّالُ: العالِمُ به المجيد" (الفيروزآبادي، 2008،ص:626)، "والتَّرَحلُ والارتحالُ: الانتقال، وهو الرِّحْلةُ والرُحْلةُ، حكى اللّحيانيّ: إنه لذو رِحْلةٍ إلى الملوك ورُحْلَةٍ. وقال بعضهم: الرِّحلةُ: الارتحالُ، والرُّحلةُ الوجه الذي تأخذ فيه وتريده. وقيل الرُّحْلةُ السفرة الواحدة، والرَّحيلُ: اسم ارتحالِ القوم للمسير"(ابن سيده، 1958، 226/3).

> صاحب العين: ارتحل البعير رحلةً – أي سار فمضى ثم جرى ذلك في المنطق حتى قيل ارتحل القوم والتّرَحّل والارتحال – الانتقال. ابن السِّكِّيت: هي الرحلة والرُحْلة يقال دنت رحلتُنا ورُحلتُنا. وقال أبو عمرو: الرِحلة — الارتحال، والرُحلة – الوجه الذي تريده تقول أنتم رُحلتي. صاحب العين: الرّحيل – اسمُ الارتحال
>
> (ابن سيده، 1996، 304/3)

والرِّحلة مصدر رحل، والجمع رِحلات ورَحَلات ورِحَل، والرحلة الارتحال، انتقال إلى مكان آخر، ورحل عن بلده: تركه، ورحل إلى بيت جديد: انتقل، ورحل في البلاد: تنقل

ISSN 2664-1682

فيها ... وغير ذلك من المعاني التي تدور حول التحرك والتنقل(ينظر: الجرّ، 1987، 579، 580).

وذكر أصحاب المعجم الوسيط (مصطفى وآخرون، د.ت، 334/1) عدة معان للرحلة فقالوا: "(رحل) عن المكان رحلا ورحيلا وترحالا ورحلة سار ومضى والبعير رحلا ورحلة جعل عليه الرحل فهو مرحول، ورحيل وعلاه وركبه ويقال رحل فلان بمكروه ورحله بسيفه علاه به وفي الحديث (لتكفن عن شتمه أو لأرحلنك بسيفي) وله نفسه صبر على أذاه.

"(الرَّحل) ما يوضع على ظهر البعير للركوب، وكل شيء يُعدّ للرّحيل من وعاء للمتاع وغيره، ومسكن الإنسان وما يستصحبه من الأثاث، وفي الحديث (إذا ابتلت النعال فالصلاة في الرحال)، (ج) أرحل ورِحَال ويقال حطّ فلان رحْله وألقى رحْله أقام"(مصطفى وآخرون، د.ت، 335/1).

وعليه فقد وجدنا فيما ذكرنا آنفا في معنى الرحلة أن الرحلة جاءت بمعنى السير والانتقال والوجهة التي يقصدها المسافر، وبمعنى دنو المكان المراد الوصول إليه، أو اقتراب وقت الرحيل، ولهذه المعاني كلها كان لفظ رحلة يدل على الانتقال من مكان إلى آخر، ومنه أخذ اسم رحّال لتنقله بين الأمكنة.

2.3.مفهوم أدب الرحلة:

يعدّ أدب الرحلات واحدا من أجمل أنواع الأدب، إذ إنه يعكس ويوثق كل ما صادف الرحّالة عبر رحلاته كلها، حيث إن الكاتب أو الرحّالة ينقل كل ما رآه من خلال

ISSN 2664-1682

رحلاته ويصف عادات الشعوب وأهلها، وينقل كل المواقف التي تعرض لها من خلال رحلته (فهيم، 1989).

وارتبط هذا الأدب بالرحلات التي كان يسافر فيها الرحّالة العرب لاكتشاف أراض جديدة لم تكن معروفة في السابق، وأيضا يعرف أدب الرحلة بأنه كافة المؤلفات، والمدونات، والمخطوطات التي وصلتنا من العصور الماضية، التي تحتوي على مجموعة من المشاهدات، والقصص التي عاصرها الرحّالة في الأماكن التي وصلوا إليها، ويشتمل أدب الرحلة على نقل مواصفات الطبيعة الموجودة في مناطق العالم غير المكتشفة، وأيضا يحتوي على سرد العادات والتقاليد السائدة عند الشعوب الذين عاشوا في تلك الأراضي والمناطق (فهيم، 1989).

فقد عرّف إنعام الحق غازي أدب الرحلة نقلا عن أحد معاجم المصطلحات الأدبية حيث قال:

> هو جنس أدبي مهمل، وذو تنوع كبير، وترجع أصوله إلى العصور القديمة، وقد أسهم فيه كثير من الكتّاب الخبراء المشهورين، وغيرهم من الناس منهم الدبلوماسيون والعلماء والدعاة والأطباء وأصحاب الجيش والبحريون، وهذا الجنس الأدبي يضم الأعمال التي تتصل بالاستكشاف والمغامرات، كما أنه يشتمل على سجل الملاحظات التي دونها الرحّالون عن الأراضي الأجنبية (بادشاه، 2013).

وجاء في معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب أن أدب الرحلات:

> مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق

ISSN 2664-1682

للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد ... ويعتبر أدب الرحلات – إلى جانب قيمته الترفيهية أو الأدبية أحيانا – مصدرا مهمًّا للدراسات التاريخية المقارنة

(وهبه، 1979، ص:13)

كما تعد كتب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، لأن الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهد الحية والتصوير المباشر، مما يجعل قراءتها غنية وممتعة ومسلية، كما أن هناك عددا كبيرا من الروايات والقصص يمكن أن يندرج بصورة ما تحت مسمى أدب الرحلات، وقد اشتهر العرب بأدب الرحلات ومن أهمها رحلة ابن بطوطة (ينظر: فهيم، 1989).

ومع هذا فإن هذا الفن من فنون الأدب العربي لم يظهر تحت مسمى أدب الرِّحلات، وإنما يظهر أحيانا تحت قائمة كتب التاريخ أو الجغرافيا أو السيرة الذاتية، أو كتب الاعتراف أو أدب الاعتراف، وهكذا فإن هذه التسمية وليدة هذا العصر نتيجة ما شهده من دراسات ومصطلحات وتقسيمات للفنون وظهور ألوان من المعرفة الأدبية المختلفة.

3.3. التعريف بالعبدري صاحب الرحلة وعصره:

محمد بن محمد بن علي بن أحمد، أبوعبدالله الحاحي العبدري: صاحب (الرحلة) المعروفة باسمه. أصله من بلنسية. ونسبته إلى بني عبد الدار. كان من سكان بلدة (حاحة) في المغرب، بعد أزمور، توجه منها حاجا سنة 688 هـ، فدخل باجة وتونس والقيروان. ومر بالإسكندرية في ذهابه وإيابه. وليس في المصادر ذكر لسنة وفاته، وهو رحّالة ومؤرخ وقاضٍ

ISSN 2664-1682

وفقيه مغربي من القرن السابع الهجري، ولد بِحَاحَة ونشأ فيها، ثم انتقل إلى مراكش حيث تعلم فيها إلى أن صار قاضيا، عاد بعد رحلته إلى حَاحَة وتوفي بها، وقبره معروف فيها يطلق عليه اسم سيدي أبو البركات، وكان شاعرا فحلا وأديبا وناقدا (ينظر: الزركلي، 2002، 32/7).

والغريب في الأمر أن الزركلي أورد له ترجمتين متتاليتين، ربما بسبب التباس الأمر عليه، وظنهما شخصين مختلفين، وأشار صاحب كتاب جذوة الاقتباس إلى أنه لم يقف على تاريخ وفاته (المكناسي، 1973، 286) ، كما أنه لم يذكر تاريخ ولادته، مع أنه ذكر تاريخ انتهاء رحلته وبعض شيوخه ومقتطفات من شعره، ومنها قصيدة في مدح يوسف بن يعقوب المريني مطلعها (البلنسي،2007، ص:18):

فمن مبلغ علياه عني من نظمي رسالة مستعد شكا ظلمة الظلم

"ولا يبعد أن تكون وفاته نحو سنة 725هـ 1325م" (البلنسي،2007، ص: 8).

4. طبيعة النقد في القرنين السابع والثامن الهجريين

لسنا بحاجة إلى تناول النقد في المشرق، فقد تناوله عدد من الباحثين، وتوافرت له دراسات عديدة وكثيرة، وكذلك في الغرب الإسلامي قبل القرنين السابع والثامن الهجريين، وكُتبتْ في ذلك دراساتٌ معمّقة ومطوّلة، ولكن ما يعنينا في هذا البحث هو أن نتناول – بصورة موجزة – فن النقد في القرنين السابع والثامن الهجريين، عصر العبدري، للوقوف على بعض الجهود والاتجاهات النقدية وأبرز أعلامها، والتآليف التي اشتهرت بين العلماء والدارسين في هذين القرنين، ومن ثم التعرف على الرؤية النقدية العبدرية وطبيعتها ضمن

ISSN 2664-1682

اتجاهات النقد الحديث وتياراته المختلفة؛ مستأنسين في أحكامنا ببعض الدراسات القيّمة التي كتبت في هذا الموضوع.

إن الناظر إلى النقد الأدبي في القرن الخامس، يجد أن بلاد الأندلس والمغرب قد شاركت فيه بنصيب؛ كما شهد تحولا ربما يعدّ جديداً، وهو شكل يدل على الضيق بالتحليل، ويوجز النظرات والآراء العامة، ويسعى لترسيخها في نفوس الدارسين؛ مما أضفى على جوانب النقد في القرن الخامس وما تلاه جانبا جعله يتمتع بقسط من الحيوية غير أنها حيوية نابعة من شخصيات الناقدين من أمثال المرزوقي وعبد الكريم النهشلي وابن رشيق وابن شهيد، لا من الجدة في الآراء والنظرات النقدية (عباس، 1983، ص:371، 372).

ومع ذلك لا يمكن الإغضاء عن بعض مؤلفات المشارقة؛ لأن المغاربة عموما والأندلسيين على وجه الخصوص اعتمدوا الثقافة المشرقية أساسا لدراساتهم، ثم تطورت على أيديهم بما أضافوه إلى هذه الثقافة من علوم ومعارف، وإبداع وابتكار.

ولو تتبعنا ما ألف في فن النقد خلال القرنين السابع والثامن الهجريين في المشرق والغرب الإسلامي لوجدنا عدة اتجاهات نقدية، نذكر منها:

1. التأليف في علم البلاغة وفنونها وبرز في هذا الجانب عدد من المؤلفات مثل: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، لفخر الدين الرازي (ت 606هـ)، ومفتاح العلوم للسكاكي (ت 626هـ)، وتحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصري (ت 654هـ).
2. التأليف في فن الشعر وعلومه، مثل المطرب في أشعار أهل المغرب لابن دحية الكلبي (ت 633هـ)، والختام المفضوض عن خلاصة علم العروض لأبي بكر القلوسي (ت 707هـ)، شرح الغموض من مسائل العروض لأبي الحسن ابن بري (ت 730هـ).

ISSN 2664-1682

3. التأليف النقدي في الشروح الأدبية، وفي هذا المجال ظهرت تأليف عديدة، أودع خلالها كتّابها نقدات أدبية وفق اتجاه معين، من أمثال: شرح أبي العباس الشريشي(ت 619هـ)، إظهار صدق المودة في شرح البردة لابن مرزوق الحفيد (ت 843هـ)، وشرح البردة لأبي عبد الله محمد بن محمد الألبيري(ت 782هـ)، ورفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة للشريف السبتي (ت 760هـ).

4. التأليف في النقد من خلال كتب تراجم الأدباء، فقد شكل مادة أساسية لدارسي النقد في القرنين السابع والثامن الهجريين، مثل: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبي الحسن ابن بسّام الشنتريني، وقلائد العقيان، ومطمح الأنفس لمؤلفهما الفتح بن خاقان، والمطرب من أشعار أهل المغرب لأبي الخطاب بن دحية الكلبي، والغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة الثامنة لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد، والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي.

5. التأليف النقدي المتأثر بالفكر والفلسفة اليونانية، وفي هذا المجال برزت جهود المغاربة والأندلسيين وبلغت أوجها، وفاقت جهود المشارقة في هذا الباب، كما في «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» لأبي الحسن حازم القرطاجني (ت 684هـ)، و«المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع» لأبي محمد السجلماسي (توفي بعد 704هـ)، و«الروض المريع في صناعة البديع» لابن البناء المراكشي (ت ؟هـ).

6. التأليف النقدي من خلال كتب الاختيارات الحديثة من أمثال مناهج النقد الأدبي بالمغرب خلال القرن الثامن، علي الغزيوي: مناهج النقد الأدبي في الأندلس بين النظرية والتطبيق، العربي آيت الشريف: النقد الأدبي بالأندلس في القرنين السادس والسابع، صفوت عبد الله الخطيب: نظرية حازم القرطاجني النقدية الجمالية.

ISSN 2664-1682

ولا يمكن تكوين فكرة شاملة ودقيقة للنقد وأعلامه في هذين القرنين إلا من خلال هذه التآليف ومحاولة الإلمام بمكنوناتها.

5. خصائص الرؤى النقدية في الرحلة المغربية:

لو تتبعنا الوقفات النقدية للعبدري في رحلته المغربية لوجدناها متنوعة، منها ما يعتمد على النقد الذاتي الانطباعي، ومنها ما يقوم على النقد الموضوعي، ومع ذلك لا يمكن حصر خصائص هذه الوقفات إلا من قبيل التأمل وإمعان النظر:

فمن آرائه النقدية إيراده لقصيدة الشيخ الفقيه العالم الصالح أبي محمد عبد الله بن الشيخ الفقيه العالم الصالح أبي زكريا يحي بن علي الشقراطسي التوزري الشهير بالمصري المتوفى "يوم الثلاثاء لثمان خلون من ربيع الأول سنة ست وستين وأربعمائة".

(البلنسي، 2007، ص:76)

فذكره لهذه الصفات [الشيخ الفقيه العالم الصالح] له ولوالده دلالة على تبجيله له ورضاه عنه.

ثم إيراده القصيدة كاملة، وهي مكونة من 133 بيتا على الرغم من أن هذا العمل توثيقي، ويحفظ لنا عملا أدبيا ربما يضيع، ولكن يدل على إعجابه بالشاعر قبل إعجابه بالعمل الأدبي؛ ولأنه كما يقول وليم راي (William Ray): "أن القراءات الفردية تشير بالدرجة الأولى إلى الفاعل الذي قصدها"(راي، د.ت، ص:73).

ثم يثني على القصيدة كما أثنى على ناظمها، فيقول: "قد أبدع هذا الناظم – رحمه الله تعالى– فيما نظم، وشرّف هذه القصيدة بقصيده الجميل فيها، وعظّم فراقت معنى ومنظرا، وشاقت حسنا ومخبرا"(البلنسي، 2007، ص:83).

ISSN 2664-1682

فهل يصلح هذا الوصف في قصيدة بلغت مائة وثلاثة وثلاثين بيتا؟ وهل هي على ما وصفت من الحسن شكلا ومضمونا؟

بل يستدل على صواب رأيه برأي أحد أدباء عصره فيقول: "فهي كما وصفها أبو عبد الله المصري حين قال: "يئست من معارضتها الأطماع، وانعقد على تفضيلها الإجماع، فطبقت أرجاء الأرض، وأشرقت منها في الطول والعرض"(البلنسي، 2007، ص:83).

إلا أنه تدارك الأمر وأشار إلى بعض مآخذه على ناظم هذه القصيدة، فهو يحاول إيراد آرائه النقدية في القصيدة دون أن يبعد شبح ناظمها عن ناظريه، فكانت آراؤه وأحكامه عامة وعرضية، كما أنها انطباعية وفيها الكثير من التعميم على عادة أهل نقاد زمانه.

ثم يتابع نظراته النقدية بقوله:

على أنه – رحمه الله – قد أكثر فيها لأجل الصناعةِ التصنعَ، وتكلف منها ما هو بعيد المرام، شديد التمنع، واعترض في كل معنى عرض، وربما أخرق النزع فخالف الغرض، ثم يدلل على صحة رأيه وانتقاده بشواهد من القصيدة، فأتى بالشطر الأول من البيت الواحد بعد المائة من القصيدة وهو قوله:

فويل مكة من آثار وطأته ووبل قريش من جوى الهبل

ثم أتى بالشطر الثاني من البيت الخامس عشر بعد المائة، وهو:

أم اليمامة منه يوم مصطلم وحلّ بالشام شؤم غير مرتحل

(البلنسي، 2007، ص:82، 83)

ISSN 2664-1682

ثم يسترسل في إشاراته النقدية دون أن يبين أو يوضح أو يعلل، وإنما يطلب من القارئ أن يشحذ همته لمعرفة التصنع في أبيات القصيدة المختلفة قائلا: "وما جرى هذا المجرى من كلامه – رحمه الله" (البلنسي، 2007، ص 83).

ثم يورد حُكما عاما على القصيدة بقوله: "ولكن قصيدته بالجملة قد حلّت من البلاغة في حصن ممنّع، وجلّت زَهَّاهُ الحسن أن يتقنّع"(البلنسي، 2007، ص:83).

بل ينبري للدفاع عنها مخاطبا القارئ بأن هذه الآراء والملاحظات النقدية لا تنقص من قيمة القصيدة شيئا فيقول: "فإن أنكرت من وصفها قولا، أو سمعت في مدحها تخطيط لولا، أحردت متأملة، وأنشدت متمثلة: << رجز >>

ما سلم البدر على حسنه كلا، ولا الظبي الذي يوصف

البدر فيه كلف ظاهر والظبي فيه خنس يعرف

وقد أولع الناس بها كل الولوع، واستحسنوا من محاسنها كل مفروق ومجموع، وعنوْا بها شرحا وتخميسا، وعمّروا بها معهدا أنيسا"(البلنسي، 2007، ص:83، 84).

وفي هذا إشارة إلى شهرة هذه القصيدة وإعجاب الناس بها، ودليله على ذلك أن شرحت وخُمّست من عدد من الأدباء، ومن هؤلاء الأديب أبو عبد الله المصري، وسمّى تخميسه هذا بسمط الهدي في الفخر المحمدي وأوله: <<بسيط>>

ابدأ بحمد الذي أعطى ولم تسل وذد به ريب رين الأين والكسل

فالحمد أحلى جنى من طيب العسل الحمد لله منّا باعث الرسل

هدى بأحمد منّا أحمد السبل

ISSN 2664-1682

وقد قرأه العبدري على صاحبه الفقيه أبي عبد الله بن هريرة، وكان أوجز رأيه النقدي في التخميس عامة بقوله: "وهو تخميس لا بأس به"(البلنسي، 2007، ص:84).

ثم أورد تخميسا آخر للقصيدة وهو تخميس الفقيه الأديب الفاضل القاضي أبو عمرو عثمان بن عتيق المعروف بابن عريهة، يقول في مطلعه: <<بسيط>>

أربع من العلم الأسنى على طلل فكم ضحيت ولم تفزع إلى ضلل
وإن عشوت إلى نار الهدى فقل الحمد لله منّا باعث الرسل
هدى بأحمد منّا أحمد السبل

ويصف العبدري هذا الفقيه الأديب الفاضل القاضي بأنه "من المشاهير بإفريقية، وشعره مجموع وقفت عليه بخطه، وأكثره قعقعة ما ترسل بغيث مزنا، وكما قيل: جعجعة ولا أرى طحينا"(البلنسي، 2007، ص:85).

والغريب في الأمر أنه يستدل على شهرة قصيدة صاحبه الشقراطسي بتخميس ابن عتيق، وفي الوقت نفسه يقدح في شعره وينتقده بأن أكثر شعره لا كبير فائدة ترجى منه، ولا يحمل صورا أو دلالات جديدة، بل يفتقد للعاطفة الجياشة، لأن القعقعة والجعجعة دلالة على فخامة اللفظ وجزالته، بينما يفتقد أركان الشعر الأخرى، وعلى هذا فأحد مقاييسه النقدية أن الشعر يجب أن يكون فيه "المنظوم مثل المنثور في سهولة مطلعه، وجودة مقطعه، وحسن رصفه وتأليفه، وكمال صوغه وتركيبه"(العسكري، 2008، ص. 49).

كما خمّس القصيدة المذكورة أيضا الأديب أبوبكر محمد بن الحسن بن يوسف بن حبيش –رحمه الله– ويحكم على هذا الأديب بعد نعته بالفقيه الأديب الفاضل الأوحد بأنه "من المتقنين المجيدين وذوي الفضائل المبرزين، واعتنى بها اعتناء تاما، وتصرف فيها على

ISSN 2664-1682

أوجه كثيرة من تخميس غيره، وكرر تخميسها ثلاث مرات وسمّاها القُرب الثلاث"(البلنسي، 2007، ص:85).

ومطلع أول تخميس له قوله: <<بسيط>>

عزْل الشباب قضى أن المشيب وُلّي فما التغزل من قولي ولا عملي
حمدُ الإله ومدح المصطفى أملي الحمد لله منّا باعث الرسل
هدى بأحمد منّا أحمد السبل

ولشدة إعجابه بهذا التخميس نتابع آراءه النقدية والبلاغية فيه، إذ يقول

ومن تأمّل هذه البداية وتمكنها ومناسبة هذه الأقسام، رأى قدر التفاوت فيما بين هذا النظم والذي قبله، أما تمكنها فلأنه لما جرت عادة الشعراء بالافتتاح بالتغزل وطّأ الافتتاح بغيره بما ذكر من أن الوقت اللائق به التغزل هو عصر الشباب، وأن اللائق بعصر المشيب هو ذكر الله والإقبال على الحمدِ لله، وأحسن الاستعارة في ذكر الولاية والغزل (البلنسي، 2007، ص:85، 86).

ويقول: "ولما رأى أن البيت متضمّن لمعنيين حمدُ الله تعالى ومدحُ رسوله صلى الله عليه وسلم وطّأ لهما معا في القِسم الذي قبله حتى جاءت الأقسام والبيت في غاية التناسب كأنهما نظم رجل واحد"(البلنسي، 2007، ص:86).

ثم يضيف:

وما ذكر من الولاية والعزل في الشباب والشيب استعارة حسنة واقعة موقعها، وقد كان هذا المعنى عرض لي قديما فنظمته في بيت من قصيد، وزدت فيه معنى آخر، وهو أن الشيب لما وُلّي قام بأعلى الرأس خطيبا، لما كان من شأن الوالي الخطبة

ISSN 2664-1682

والصعود لها على المنبر، وحسن أن يستعار ذلك للشيب لما كان نذيرا زاجرا فقلت في ذلك:«من الطويل»

شبابي والٍ جاء شيبي بعزله فقام بأعلى الرأس أي خطيب

(البلنسي، 2007، ص. 86)

من خلال هذه الآراء يتبين لنا أن معايير الجودة عند العبدري تقوم على أمور:

1. حسن الابتداء وتمكّنه
2. مناسبة أقسام القصيدة
3. الصور البلاغية الأخّاذة، من حيث حسنها وجمال موقعها وتركيبها
4. التوطئة لما يرد من معاني.
5. مقارنة الصور المستحسنة بمثيلاتها عند المؤلف.

ويشير العبدري إلى تخميس رابع للقصيدة إلا إذا اعتبرنا أن التخميسات الثلاثة السابقة تخميسا واحدا بحكم كونها لأديب واحد، كما أن العبدري لم يورد رأيا نقديا إلا في التخميس الأول فقط دون أن يذكر التخميسين الآخريْن.

كما تناول تخميسا آخر لأبي عبد الله المصري لقصيدة[1] أبي الفضل يوسف بن محمد المعروف بابن النحوي وقرأه على صاحبه أبي عبد الله بن هريرة ووسمه بعجالة الروية في تسميط القصيدة النحوية، وقد أوردها العبدري بتخميسها المذكور كاملة؛ وذلك "لما وصف من بسطها لمقبوض الوحشة، وتأنيسها نظرا إلى الأمر المقصود والمعنى المعتبر، وإغضاء عن

[1] هذه القصيدة تعرف بأم الفرج، أو المنفرجة، وهي مشهورة جدا عند أهل الأدب. ويعمل الباحث الآن على تحقيق أحد شروحها بتوفيق من الله.

ISSN 2664-1682

اللفظ بعيبه في مثل هذا مغتفر"(البلنسي، 2007، ص:87)، ونكتفي هنا بذكر مطلعها: <<المتدارك>>

يا من يشكو ألم الحرج ويرى عسرا قرب الفرج
أبشر بشذى فرج أرج اشتدي أزمة تنفرجي
قد آذن ليلك بالبلج

ومما أورده العبدري من آراء نقدية في تخميس هذه القصيدة:

1. عجالة الروية في تسميط القصيدة.
2. وجود عيوب لفظية لم يعرج عليها لقدسية هذه القصيدة وتعظيمها عند الناس.

ثم يعقب العبدري بعد إيراده تخميس القصيدة كاملا، كما يتناول البيتين 39، 36 هكذا دون ترتيب، فيقول:

وفي كثير من هذا التخميس مقال، وليس لبعض أقسامه بالبيت اتصال، وأما ما خمّس به أولا قوله: وأبي عمرو ذي النورين، فغلط لا شك فيه؛ لأنه يؤدي إلى قطع همزة المستهدي، وبقطعها ينكسر البيت لزيادة حرفين على وزن الخبب، وأظن أنه نبّه على هذا ولم يفته علما، فلذلك بقي على اعتقاد صحة الوجه الأول"(البلنسي، 2007، ص:94).

ويضيف:

وأما قوله: صلوات الله على المهدي، فأظنه خفّف فيه الياء وقطع الهمزة بعدها ليأتي له التخميس؛ لأن الأقسام تبنى على الترنم كحرف الرّوي، وذلك موجب للمدّ والإدغام يمنعه، ولو بنى الأقسام على الياء المشدّدة، كما هي في عروض

ISSN 2664-1682

البيت لزاد حرفا في أول القسم الرابع ضرورة؛ لأن حركة الياء تكون إذا في كل قسم معدودة من الذي بعده لإدماج البيت، فإذا عدت من القسم الرابع وقد قام وزنه كانت زائدة وانكسر الوزن ضرورة (البلنسي، 2007، ص:95)

من هذه الملاحظات النقدية التي أوردها على تخميس هذه القصيدة:

1. عدم وجود اتصال بين بعض الأقسام والبيت من القصيدة، أو ما يسمى بالتمكين.
2. الالتزام بالوزن العروضي ومن غيره ينكسر البيت.
3. أيضا يوجد مبرر لمبدع القصيدة في حالة تنبيهه على ما يقع فيه من أخطاء أو ضرورة شعرية.
4. تعد الموسيقى عنصرا أساسيا وبارزا، لأن أجزاء البيت تبنى على الترنم كما أشار لذلك.

كما أورد في رحلته قصيدة وعظية له بعث بها إلى ابنه محمد، وهي قصيدة طويلة مكوّنة من خمسين بيتا، وقد أثبتها كاملة بعد أن ذكر آراء أديبين فيها، يقول:

وقد نظمت بالقيروان قصيدة بعثت بها إلى ولدي محمد وفّقه الله، وكان شيخنا زين الدين بن المنير حفظه الله يستحسنها كثيرا، وسمعها مني شيخنا الشريف الحسيب الفقيه الفاضل أبو الحسن علي بن أحمد القرافي، وقيّدها بخطه، وكتب عليها سماعه، فرأيت إثباتها في هذا الرسم إذ هو أليق المواضع بها بحول الله تعالى

(البلنسي، 2007، ص:113)

ومطلعها: << وافر >>

أصغ سمعا أوصك يا بني وصية والد برّ حفي

ISSN 2664-1682

وربما كان العبدري يبالغ في وصف بعض مشاهداته حتى إنه حين يتكلم عن نزوله بتونس يقول: "وقد أقمت بها مدة حتى شفيت الحشا العليل، ونقعت بوردها الغليل، وقطعت فيها الغدو الأصيل، بمجالسة كل فاضل جليل ... فلم يبق بها شيخ مذكور إلا رأيته، ولا عالم مشهور إلا أتيته" (البلنسي، 2007، ص:156).

ثم يفرد من بين من لقيهم من العلماء ابن الغماز الذي يقول عنه "وممن واظبته مدة الإقامة، ولزمته لزوم الطوق للحمامة، الشيخ الفقيه الفاضل، والحبر النزيه الكامل، قاضي القضاة، وزين الحملة والرواة، ذو التواضع والإنصاف، والمعروف بوطأة الأكناف، مسند عصره، والمرجوع إليه في مصره" (البلنسي، 2007، ص:156).

وعند ذكره لاسمه يدعو له بقوله:

> وصل الله صيانته، وأدام على الخيرات إعانته، فلقيت منه عالما يأخذ بالأسماع والأبصار، وفاضلا خلت من مثله القرى والأمصار، وغرة أجلى من ضوء الصباح، مع سكون الطائر وخفض الجناح، يدأب على الإسماع دؤوب من عدّ العلم أرفع صناعة، ورأى الاشتغال به أنفع بضاعة، لا يشغله عنه الإبقاء على أعضائه الواهية، ولا يصدّه عنه ما تتحمله فيه من المشقّة نفسه السامية، ولم يؤثر في قوة اجتهاده ضعف قواه، ولا هوى به إلى استياط الراحة هواه، بل يستعذب في خدمة العلم ما يلاقي، ويعدّه عدّة ليوم التلاقي (البلنسي، 2007، ص.156، 157)

ويذكر أنه قد قرأ مختارات وأبيات على الشيخ ابن الغماز الخزرجي – وهو أحمد بن محمد بن حسن بن محمد، ويكنى بأبي العباس، الذي ولد سنة 609هـ – كما قرأ عليه من

ISSN 2664-1682

تأليفه: مفاوضة القلب العليل على طريق أبي العلاء المعري في ملتقى السبيل، ومما قرأ عليه من المختارات قصيدة لشيخه أبي ربيع بن سالم وصفها بأنها: كبيرة، أولها ((بسيط)):

يا من لصبٍّ يرى أشجانه النظر مهما تبدى له من حبه أثر

يفي له الصبر عند النائبات فإن يلح له أثر لم يبق مصطبر

وذاك غير ذميم من مواقعه إذا تعقبه التنقيح والنظر

عقّب عليها العبدري بقوله "وهي أزيد من مائة بيت من غرر القصائد أجزلها لفظا ومعنى" (البلنسي، 2007، ص:160)، وهو نقد لم يخرج في مجمله عن الإعجاب والإطراء وهو من قبيل النقد الانطباعي أو الذاتي دون تعليل أو تعليق.

ولكن عند عرضه لقصيدة شيخه ابن الغماز التي يقول فيها ((طويل)):

أيا سامع الشكوى ودافع البلوى ويا كاشف اللأواء واليأس والضرّ

أسير الخطايا يرتجي فكّ أسره وإن لم يكن أهلاً لفكٍّ من الأسر

ومالي لا أرجو وإن كان مسرفا وأدري من الصفح الجميل الذي أدري

قال: "أتى شيخنا حفظه الله بعروض البيت الأول تامة، وإنما سمعت مقبوضة، إلا أن الترصيع الذي في البيت ربما سوّغ ذلك كما في الترصيع، وقد وقع مثله في شعر المتنبي وتعقّب عليه" (البلنسي، 2007، ص:160).

وذلك لأن العروض في بحر الطويل تأتي مقبوضة على وزن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن، ولكن الناظم أتى بها تامة أي على وزن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن، وهو خلاف المعهود، ولكن برر ذلك العبدري بأن هذا الأمر كان للضرورة، وهي مراعاته للترصيع في البيت، والترصيع عند علماء البديع هو: "أن يكون البيت مسجوعا" (ابن

ISSN 2664-1682

منقذ، 1987، ص: 171)، وهنا لكي يحافظ على السجع في الشطر الأول بين كلمتي الشكوى والبلوى، ويدلل على جواز ذلك بوقوعه في شعر المتنبي، وقد انتقد فيه.

6. النتائج

بعد هذه الجولة في الرحلة المغربية ومحاولة التركيز على الآراء النقدية التي ضمّتها رحلة العبدري البلنسي تبين لنا عدة آراء وملاحظات نقدية نوجزها فيما يلي:

- النقد لدى الرحّالة العبدري يدل على إعجابه بالشاعر قبل إعجابه بالعمل الأدبي فذكره لهذه الصفات مثل: [الشيخ، الفقيه، العالم، الصالح] للشاعر أو للأديب دلالة على تبجيله له ورضاه عنه.
- إيراده القصيدة كاملة، مهما طالت يدل على أن هذه الرحلة عمل توثيقي، كما تحفظ لنا عملا أدبيا ربما يضيع مع مرور الزمن وعدم وجوده في مصادر أخرى توثقه.
- يحاول العبدري إيراد آرائه النقدية في القصيدة – دون أن يبعد شبح ناظمها عن ناظريه – فكانت آراؤه وأحكامه عامة وعرضية، كما أنها انطباعية وفيها الكثير من التعميم على عادة أهل نقاد زمانه.
- لو تبين له أن القصيدة فيها صناعة ونوع من التكلف لم يقلل من شأن ناظمها بل يبرّر ذلك بأنه تكلف منها ما هو بعيد المرام، شديد التمنع، واعترض في كل معنى عرض، وربما أخرق النزع فخالف الغرض.
- عند ذكره لبعض الآراء النقدية حول نص معين دون أن يبين أو يوضح أو يعلل، فهو يطلب من القارئ أن يشحذ همته لمعرفة أوجه القصور في أبيات القصيدة المختلفة.
- ومن الجوانب الموضوعية في نقده أنه يرى أن شهرة الشاعر لا تبرر له ما يقع فيه من أخطاء لذا نجده يقدح في شعره وينتقده كأن يكون أكثر شعره لا كبير فائدة ترجى

ISSN 2664-1682

منه، أولا يحمل صورا أو دلالات جديدة،مثل فقده للعاطفة الجياشة، أو يبين أن القعقعة والجعجعة دلالة على فخامة اللفظ وجزالته، بينما يفتقد إلى أركان الشعر الأخرى وهكذا.

- معايير النقد العامة عند العبدري تقوم على أمور منها: حسن الابتداء وتمكّنه، مناسبة أقسام القصيدة، الصور البلاغية الأخّاذة، من حيث حسنها وجمال موقعها وتركيبها، التوطئة لما يرد من معاني، مقارنة الصور المستحسنة بمثيلاتها عند الشاعر؛ إلا أن له معايير خاصة مثل: تبريره لعجالة الرَّويّة في تسميط القصيدة، أو وجود عيوب لفظية لم يعرج عليها الشاعر لقدسية القصيدة أوتعظيمها عند الناس، أو عدم وجود اتصال بين بعض الأقسام والبيت من القصيدة، أو ما يسمى بالتمكين، كذلك يرى ضرورة الالتزام بالوزن العروضي لأنه من أركان الشعر، ولأن الموسيقى تعدّ عنصرا أساسيا وبارزا، لأن أجزاء البيت تبنى على الترنم في نظره.
- في بعض الأحيان نجد له نقدا لم يخرج في مجمله عن الإعجاب والإطراء وهو من قبيل النقد الانطباعي أو الذاتي دون تعليل أو تعليق.

ISSN 2664-1682

قائمة المراجع

بادشاه، حافظ محمد (2013). *الحجاز في أدب الرحلة العربي*، (رسالة دكتوراه غير منشورة). الجامعة الوطنية للغات الحديثة، باكستان.

البلنسي، محمد العبدري (2007). *الرحلة المغربية*.(تقديم: سعد أبو فلاقة). بونة للبحث والدراسات.

الجرّ، خليل (1987). *المعجم العربي الحديث لاروس*. مكتبة لاروس، باريس.

الجوهري، إسماعيل بن حمّاد (1987). *الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية*. (تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار). دار العلم للملايين.

راي، وليم (ب ت). *المعنى الأدبي من الظاهرتية إلى التفكيكي* (ترجمة: يوئيل يوسف عزيز). دار المأمون للترجمة والنشر.

الزركلي، خير الدين (2002). *الأعلام (قاموس تراجم) لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين*. دار العلم للملايين.

ابن سيده، علي بن إسماعيل (1958). *المحكم والمحيط الأعظم*، ج3. (تحقيق: عائشة عبد الرحمن). معهد المخطوطات العربية.

ابن سيده، علي بن إسماعيل (1996). *المخصص* (تحقيق: خليل إبراهم جفال). دار إحياء التراث العربي.

عباس، إحسان (1983). *تاريخ النقد الأدبي عند العرب*.ط. 4. دار الثقافة لبنان.

العسكري، أبو هلال (2008).*كتاب الصناعتين*. دار الكتب العلمية.

ISSN 2664-1682

فهيم، حسين محمد (1989). *أدب الرحلات*. عالم المعرفة، الكويت.

الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (2008). *القاموس المحيط*. دار الحديث.

مصطفى، إبراهيم؛ الزيات، أحمد؛ عبدالقادر، حامد؛ النجار، محمد. (ب ت). *المعجم الوسيط*. (تحقيق: مجمع اللغة العربية القاهرة). دار الدعوة.

المكناسي، أحمد بن قاضي (1973). *جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس*. دار المنصور للطباعة والوراقة.

ابن منظور، محمد بن مكرم (د.ت). *لسان العرب*. دار صادر لبنان.

ابن منقذ، أسامة بن مرشد (1987). *البديع في البديع في نقد الشعر*. (تحقيق: عبد آ. علي مهنّا). دار الكتب العلمية لبنان.

وهبه، مجدي و كامل المهندس (1979).معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب. مكتبة لبنان.

ISSN 2664-1682